

التصوف السني من الثوابت الحينية في المغرب

الدرس
16

أهداف الدرس

1. أن أتعرف مفهوم التصوف السني.
2. أن أدرك أسباب اختيار المغاربة التصوف السني.
3. أن أتمثل التصوف السني في سلوكي ومعاملاتي.

تمهيد

عُرف المغاربة باختيارات موحّدة جامعة، وهي «العقيدة الأشعرية» و«المذهب المالكي» و«التصوف السني» و«إمارة المؤمنين» وكلها مؤسّسة على الكتاب والسنة، لها أصولها الشرعية وأسسها التاريخية. وفي التصوف اختاروا «طريقة الجنيد السالك» المعروف لدى أرباب الطريقة بسيد الطائفة، وأطلق على مسلكه في التصوف «التصوف السني» تمييزا له عن غيره.

فما هو التصوف السني؟ وما مميزاته؟ ولم اختاره المغاربة؟

نص الانطلاق

ورد في دليل الإمام والخطيب والواعظ - لأئمة وخطباء ووعاظ المملكة المغربية -: «يعتبر التصوف كما أرسى قواعده السلوكية شيوخ المغرب من أهم المميزات للخصوصيات المغربية في المجال الديني؛ وذلك لما تراكم أيضا في هذا المجال من رصيد تربوي، أسهم - عبر التاريخ - بصورة فعالة جدا في تشكيل الوجدان الديني المغربي، والسلوك الاجتماعي الوطني؛ بما لا يمكن محوه أو تغييره، وهذه حقيقة تاريخية راسخة... وقد كان للتصوف كما تمثله شيوخ المغاربة - ولا يزال - الأثر البالغ في تمتين الروابط الروحية، بين جميع المكونات الثقافية والاجتماعية والقبليّة للمجتمع المغربي، تحت لواء واحد، هو: لواء المحبة؛ إذ المحبة هي غاية التربية الروحية والسلوك الصوفي، وذلك بالسير بالمريد عبر «مقامات»

التربية، و«أحوال» التزكية؛ حتى يصل إلى تحقيق خُلة «المحبة» في نفسه؛ خُلُقاً تعبدياً أصيلاً صادقاً، يمتد في سلوكه وطبيعته إلى سائر المجالات بعد؛ بما فيها المجال الاجتماعي، والسياسي، والثقافي...، بما هي علاقات، وتصورات، ومشاعر أيضاً؛ لأن المحبة لا تَلَزَمُ في الوجدان الروحي حداً معيناً، بل تفيض مواجيدها في السلوك العام للإنسان. وهذا سر القوة في التربية الصوفية، مما لا تجده في غيرها...، فالمقامات هي ما يكتسبه العبد من منازل إيمانية؛ بمجاهداته الروحية في طريق العبادة والزهد. فإذا حصل العبد على مقام ما كان له ذلك المقام خُلُقاً ثابتاً، وصفةً راسخةً، يبني عليها ما بعدها؛ إلى أن يبلغ خلة الكمال».

[دليل الإمام والخطيب والواعظ، ص 23-24 بتصرف].

الفهم

الشرح:

- **المحبة:** ميل القلب إلى الله وإلى ما لله من غير تكلف.
- **الوجد:** ما يرد على القلب من غير تعمد ولا تكلف، من غم أو فرح.

استخلاص المضامين:

- أستخلص من النص أثر التصوف السني على المجتمع المغربي.

التحليل

أولاً: مفهوم التصوف السني

يقصد بالتصوف السني مدرسة التربية والسلوك القائمة على منهج السلف في الاتباع؛ «فالتصوف السني يمثل تياراً ومدرسة للتربية والسلوك في زمن السلف، وقد سار في ركابه أقوام طَلَّقُوا الدنيا واعتزلوا غمرات السياسة، وعرفوا برسم الزهد في بداية أمرهم، وكان أعلامهم ممن لزموا الكتاب والسنة، كبشر الحافي، ومالك بن دينار، وأبي سليمان الداراني، والجنيد سيد الطائفة» [دليل الإمام والخطيب والواعظ، ص 45].

ويستعمل مصطلح «التصوف السني» لتمييز طريقته عن غيره؛ فالتصوف السني قائم على التزكية، وتهذيب النفس، وعلاج أمراض القلوب، والسمو عن الملذات، وتصحيح المفاهيم

والتصورات ، وسداد الأقوال والأفعال . وللوصول إلى هذه المقاصد وتحقيق سعادة الدارين وجد أهل المغرب أقرب الطرق لذلك هي طريقة «الجنيد السالك» ، ونسبة الطريقة إليه ليس معناه أنه ابتدع طريقة من عنده «فكما قامت طائفة من العلماء بحفظ فروع الدين ، ونسبت إليها المذاهب لما كان لهم من جهود في ذلك ، وكذلك الإيمان والعقائد قامت طائفة من أولي العلم بالذنب عنها وحفظها ، فنسبت إليهم كذلك ، وقامت طائفة أخرى بحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وأحواله ، فكان من الطائفة الأولى الأئمة الأربعة وأتباعهم رضي الله تعالى عنهم ، وكان من الطائفة الثانية الشيخ الأشعري وأصحابه ، وكان من الثالثة الشيخ الجنيد وأصحابه . . . فالطريقة نسبت إلى الجنيد لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها ، ودعائه للعمل بذلك عندما ظهر التأخر عنها» [المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، للتليدي ، ص 19 بتصرف].

والتصوف السني في المغرب مقترن بدخول الإسلام إليه «والعدوة المغربية وجد فيها كثير من الزهاد والنساک والمتقشفين ، منذ دخلها الإسلام ، كما نرى ذلك جليا في الطبقة العلمية في «تاريخ العلماء» لابن الفريسي و«الصلة» لابن بشكوال و«الدياج» و«المدارك» وغيرها» [المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، للتليدي ، ص 39]. وقد أسست تلك النماذج لفهم عملي للطريقة ، وفق منهج في السلوك أسس على ضوابط الشريعة وأصولها «والتصوف السني مسلك أصيل في الزهد وتزكية الأنفس ، وهو اختيار أسلافنا منذ أمد بعيد ، فالحفاظ عليه حفاظ على مقومات الأمن الروحي للبلاد» [دليل الإمام والخطيب والواعظ ، ص 52].

ثانياً: أسباب اختيار المغاربة التصوف السني على طريقة الجنيد السالك

إن اختيار طريقة الجنيد السالك في التصوف هو اختيار أئمة وأعلام ، وجدوا في هذه الطريقة من المميزات والخصائص ما يقتضي تقديمها على غيرها ، ومنها:

1. **الجمع بين العلم والعمل؛** إذ التصوف السني قائم عليهما ، وما التصوف عند أرباب هذه الطريقة إلا «علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك ، وتصفية البواطن من الرذائل وتحليلها بأنواع الفضائل ، وأوله علم ، ووسطه عمل ، وآخره موهبة» [معراج التشوف إلى حقائق التصوف ، ص 25].

2. **التوسط والاعتدال ،** ووسطيته قائمة على الأصلين اللذين قام عليهما (الكتاب والسنة) فمنهما يستمد اعتداله في علاقة الإنسان بذاته وبربه والناس من حوله ، فلا إفراط ولا رهبانة ، بل إعطاء

كل ذي حق حقه؛ كما قال سلمان رضي الله عنه «إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه» [صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع].

3. تحقيق الوصول إلى الله، بما اشتملت عليه طريقة الجنيد من زهد وذكر وتبتل، وركي في المنازل، وبلوغ للمقامات، فطريقته مؤسسة على ما قام عليه التصوف الذي هو «طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما أقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة» [مقدمة ابن خلدون، ص 611].

4. ما تحققه من المقاصد والغايات، بما يكون لسالكها من طمأنينه وسعادة، وهو ما شهد به أحد سالكي هذا الطريق الإمام الغزالي -رحمه الله- من خلال تجربته المتميزة المعروفة؛ إذ قال: «أقبلت بهمتي على طريق التصوف، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير الله وتحليته بذكر الله» [المنقذ من الضلال، ص 70].

5. مؤسسة على الكتاب والسنة، فطريقته قائمة على الاتباع؛ كما ورد في قول «سيد الطائفة» الإمام الجنيد -رحمه الله- الذي بين حقيقة التصوف بقوله «تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الربانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة» [التعرف لمذهب أهل التصوف، ص: 34]. وقد أثر عنه قوله «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ ومذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 276/10].

6. امتداد لتصوف السلف وأرباب السلوك والعمل، فهو صلة وصل بآثارهم، وأرباب هذه الطريقة من «العارفين ذوي الهمم العالية والتربية النبوية، والتأدب بين يدي المشايخ: أهل النزاهة والتصفية، على اختلاف مقاماتهم وأحوالهم من: عباد، وزهاد، وفقراء، وصوفية...» [الفتوحات الإلهية، لابن عجيبة، ص 5]. وقد سلك هذا المسلك أعلامُ فقهاء المالكية ممن صنفوا في هذا الشأن «وصاروا فيه قدوة وأئمة تُقْتَفَى آثارهم كابن الحاج، وابن أبي جمرة، والشاطبي، والشيخ زروق المالكي «محتسب الصوفية» صاحب «عدة المريد» ممن وقفوا عند مسلك الثوري، وابن المبارك، وسري السقطي، والحارث المحاسبي، وإبراهيم بن أدهم، وغيرهم ممن لزموا هدي القرآن

والسنة «فهذا المنحى في التصوف السني قد سلكه أعلام الأئمة الربانيين ، ولم يزالوا يتواصلون بال العناية به في تزكية الأنفس ، ولم يقع عليه إنكار أحد من أهل العلم المعبرين ، بل هو روح التربية وسبيل تزكية الأنفس ، لزمه أعلام الأمة على هدي الشريعة» [دليل الإمام والخطيب والواعظ، ص 46].

7. الجمع بين التصوف والفقه؛ إذ لا تصوف بلا فقه، وقد تتابع النقل عند أرباب الطريقة أن «من تصوف ولم يتفقه فقد ترندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق» [حاشية ابن حمدون، 135/2]

8. التاريخ المشرق لرجال هذه الطريقة، بما كان لهم من فضل العلم والعمل والذود عن الوطن، والانخراط في أمور المجتمع وهمومه «وكل من قرأ سير الصوفية ودرس أحوالهم ووقف على تراجمهم وطالع كتبهم تحقق بأن التصوف هو روح الإسلام وسره وأنه ليس بشيء أجنبي عن المسلمين وعن دينهم...»، وهو سر الدين ولبه الذي كان عليه الصحابة وسلفنا الصالح رضي الله عنهم» [المطرب بمشاهير أولياء المغرب، للتليدي، ص 9 بتصرف].

رابعاً: آثار التصوف السني على المجتمع المغربي

أثر التصوف السني الذي سلكه أهل المغرب منذ قرون ثماراً علمية وتزكوية، وفوائد اجتماعية، منها:

1. انتشار مراكز العلم، وذلك بما كان من احتضان أرباب هذه الطريقة لطلبة العلم وإيوائهم وإطعامهم وتعليمهم وتربيتهم، فغدت بذلك مراكز علم وتربية؛ فمختلف مدارس التصوف السني من قادرية وشاذلية وتيجانية خرّجت علماء وفقهاء وأرباب تربية وسلوك. ولم تقتصر على الجانب الروحي، بل كان لها أثر تعليمي واجتماعي تجلّى في رعاية أبناء السبيل والإحسان إلى الفقراء والمساكين.

2. الوحدة والبعد عن الفرقة والاختلاف، بما كان من منهج وطريقة جامعة، درأت شدة الاختلاف وفتن الصراع والافتتال «ولذلك لم يوجد صراع بين المتفقهة والمتصوفة كما حصل في الشرق؛ لأنهم لم يأتوا بشيء يخالف ظاهر الشريعة كما يراه الفقهاء» [المطرب بمشاهير أولياء المغرب، للتليدي، ص 40] ولا يعني هذا حصول التوافق التام، فقصة كتاب «إحياء علوم الدين» معلومة، بيد أن «الوحدة المذهبية السنية التي ظلت تحكم المغاربة في التشبث بالمذهب المالكي، وعقيدة أبي الحسن الأشعري والتصوف السني طيلة هذه العصور، كانت من أهم عوامل الاستقرار السياسي

والديني بالمغرب؛ حيث ظلت البلاد في منأى عن النزاعات الدينية والفتن المذهبية، وتكسرت على صخرة وحدتها العقدية والمذهبية كل التيارات الهدامة التي رامت فتنة القلوب والعقول» [دليل الإمام والخطيب والواعظ، ص 35]

3. الزهد والتسابق في فعل الخيرات، من خلال التعاون والتكافل والتآزر، مع العامة والخاصة، وما مظاهر الإيواء في كثير من الزوايا ومدارس العلم في تاريخ المغرب إلا مظهر من تلك المظاهر. فالتصوف منذ ظهر في المغرب «مبناه على الزهد والتقشف والنسك وحمل النفس على المجاهدة في الطاعة والوقوف مع ظواهر الشريعة دون تغلغل في علوم المكاشفات والحقائق» [المطرب بمشاهير أولياء المغرب، للتليدي، ص 39].

4. ملازمة الأذكار والدعوات، وجمع الناس لها ترغيبا في المواظبة، وتعلima للمبتدئ من العامة، والتزاما بوقت الاجتماع للذكر والدعاء، واتخذوا أورادا يجتمعون عليها ويذكرون الله في البيوت والجوامع والزوايا ومراكز العلم.

5. الاقتداء بأهل الفضل، وذلك بما تميز به أتباع هذه الطريقة من علم وخلق «وأولى ما أُتُحِفَ به الطالب اللبيب ودون الأديب الأريب التعرف بحال الرجال، وما خصهم به المولى سبحانه من سَنِيِّ الأحوال، وذلك لثلاث فوائد، الأولى: ليختار لتقليده في دينه الفاضل دون المفضول، والثانية، نهوض الهمة لتحصيل بعض تلك المزايا التي منحوها بسبب اجتهادهم حسب ما جرت به العادة. الثالثة: ما ينزل عند ذكرهم من الرحمة الإلهية» [أزهار البستان في طبقات الأعيان، لابن عجيبة، ص 15].

التقويم

1. أبين أسباب اختيار المغاربة التصوف السني على طريقة الإمام الجنيد.

2. أبرز أثر التصوف السني على المجتمع المغربي.

الاستثمار

قال الفقيه ابن الزيات - رحمه الله -: «لم يخل زمان من ولي من أولياء الله تعالى ، يحفظ الله به البلاد، ويرحم به العباد. وكانت منهم طائفة عظيمة بأقصى المغرب أهملت أخبارهم وجُهِلت آثارهم، حتى ظن من لا علم له بهم أنه لم يكن منهم بأقصى المغرب أحد، وأنه استبعد أن يكون به ولي أو وتد. وهيئات، هيئات! ليس الأمر كذلك، فاطلب تجد».

[التشوف إلى رجال التصوف، ص 31].

أتأمل النص وأخطط مع زملائي لإعداد صفحات متعلقة بتاريخ التصوف في المغرب

الإعداد القبلي

أبحث عن مفهوم الحياة الطيبة ومقوماتها وأثر التصوف في تحقيقها